الآداب العربية

في القرن التاسع عشر

مبحثٌ تاريخي انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

الادباء النصارى (تابع)

لم نتعرّض في كلامنا عن الاسرة اليازجيّة لذكر احد نجوم تلك الثريّا المنيرة نريد الشيخ راجي اخا الشيخ ناصيف اذ لم نقف على شيء من اعماله وآدابه. ثم استفدنا من حاشية ذُيّل بها جناب الكاتب الاديب عيسى افندي اسكندر المعلوف تاريخهُ الحديث "دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف (١٩٩)" انَّ للشيخ راجي (١٨٠٣ — ١٨٥٧) ديوانًا مخطوطًا وانَّ شعرهُ يشهد لهُ بالبلاغة. وقد وقفنا لهُ في مجموع مراثي السيّد مكسيموس مظلوم على قصيدة في ذلك الفقيد الجليل اوَّلها:

مدن البرّ محمد الطهر مكسيموسُ ربُّ المحن حميدُ الخصالِ
من سرى في طريق مولاهُ حتّى سبق السابقين بالإفضالِ
ونما صارفًا الى الله فعلًا بالتُّقى لا بالقاب والاهلالِ
كم محلّ سام اشاد وكم من منزلٍ قد بنى من المجد عالِ
فجعتنا بهِ صروف زمانٍ جائرًا لا يزالُ في كلّ حالِ
ورمتنا النوالُ منهُ الى ان لم يَعُدْ موضعٌ لوقع النبالِ

وللشيخ راجي ابنٌ هو اليوم نزيل زحلة يدعى بالشيخ ملحم يتعاطى الآداب كابيهِ. وقد وقع لنا من شعره مرثاة نظمها سنة ١٨٦٩ في وفاة الدكتور يوسف الجلخ مطلعها:

كؤوس البين دارت في الانامِ من الشيخ الكبير الى الغلامِ

الى ان قال:

طبيبٌ كان يشفي كلّ داءٍ اذا استولت تباريحُ السقامِ
دهاه اليوم ما لا منهُ شافٍ ولا منهُ سليمٌ في الانامِ

واعتب فيهِ آل الجلخ سكرًا بكاس الحزن لا كاس المدام
واوقد بالأسى في كل قلب لهيبًا لا يزال في اضطرام

وختمها بقولهِ :

تركتَ العالم النزّار طرعًا وبتَّ مجاورًا دار السلام
لئن تلكَ قد رحاتَ اليوم عنّا فذكرك لا يزال الى الدوام

(آل المرّاش) كما برز اليازجيون الملكيُّون في لبنان وبيروت بانصابهم على العربيَّة في القسم الثاني من القرن التاسع عشر كذلك كان آل مرّاش الملكيُّون يتقدَّمون في حلب اهل نحلتهم في رفع منار تلك اللغة. وبنو المرّاش عُرفوا في حلب منذ القرن الثامن عشر ومنهم كان بطرس المرّاش الذي قُتل في سبيل دينهِ سنة ١٨١٨ في حلب باغراء جراسيموس اسقف الروم الاوثدكس مع عشرة آخرين من الكاثوليك (اطلب قصيدة المعلّم نقولا الترك في رثائهِ في المشرق ١٠ : ٦٦٤). وعُرف بعد قليل فتح الله المرّاش وكان لهُ المام بالعلوم اللغويَّة والادبيَّات ابقى منها آثارًا مخطوطة ثم اراد ان يخوض ميدانًا لم يكن من فرسانهِ فعثر جوادهُ وكبا زندهُ وذلك انهُ ألَّف سنة ١٨٤٩ كتابًا في انبثاق الروح القدس فزعم انهُ من الآب وحدهُ فدحض اقوالهُ الطبيب الذكر السيِّد البطريرك بولس مسعد باثبات الحجج في كتاب طُبع في رومية سنة ١٨٥٦ فلمَّا اطَّلع عليهِ فتح الله المرّاش ارعوى عن غيّهِ واذعن للحق الواضح

وخلفهُ ابنهُ فرنسيس فنال شهرة طيِّبة بذكائهِ ومعارفهِ وخلقتهِ الادبيَّة. ولد في ٢٩ حزيران سنة ١٨٣٦ ثم تلقَّن العلوم اللسانيَّة وآداب الشعر وانكبَّ على دراسة الطبّ اربع سنوات تحت نظارة طبيب انكليزي كان في الشهباء واراد ان يتمّ دروسهُ في عاصمة الفرنسيس فسافر اليها في خريف سنة ١٨٦٦ وقد وصف سفرهُ اليها في كتاب رحلة باريس الذي طبعهُ في بيروت سنة ١٨٦٧. ولم يسعدهُ الدهر في غربتهِ فكرَّ راجعًا الى وطنهِ وتفرَّغ للتصنيف رغمًا عمَّا اصابهُ من ضعف البصر والخطاط القوى حتى أفل نجم حياتهِ فمات في مقتبل الكهولة سنة ١٨٧٣. وكان فرنسيس صادق الايمان كثير التديُّن وقد ألَّف كتابًا بناهُ على مبادئ العلوم الطبيعيَّة والعقليَّة بيانًا لوجود الخالق واثباتًا لحقيقة الوحي سمَّاهُ « شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة » اعرب فيهِ عن دقَّة نظر ومعرفة بأحوال الطبيعة والعلوم العصريَّة. ومن مصنَّفاتهِ التي جمع فيها بين

الفلسفة والآداب فاودعها آراءهُ السياسيَّة والاجتماعيَّة على صورة مبتكرة كتاب « غابة الحقّ » الذي طُبع في حلب سنة ١٨٦٥ ثم كُرر طبعهُ في بيروت ومصر ومثلهُ كتاب « مشهد الاحوال » المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٣ على اسلوب لطيف ونسق حديث. وفي بيروت طبعت لهُ رواية حسنة دعاها « درّ الصدف في غرائب الصدف ». ومما طبعهُ قبلها في حلب كتاب « المرآة الصفيَّة في المبادئ الطبيعيَّة » (١٨٦١) لخَّص فيهِ اصول علم الطبيعة. ثم « خُطبة في تعزية المكروب وراحة المتعوب » (١٨٦٤) وكتاب « الكنوز الغنيَّة في الرموز الميمونية » (١٨٧٠) وهي قصيدة رائيَّة في نحو خمسمائة بيت ضمَّنها رموزًا خفيَّة على صورة رواية شعريَّة. ومن نظمهِ ايضًا « ديوان مرآة الحسناء » طبعهُ لهُ المرحوم سليم بسترس سنة ١٨٧٣ في بيروت

وكان فرنسيس المراش يحبُّ في كلامهِ الترفُّع عن الاساليب المبتذلة فيطلب في شعره ونظمهِ المعاني المبتكرة والتصوُّرات الفلسفيَّة فلا يبالي بانسجام الكلام وسلاستهِ فتجد لذلك في اقوالهِ شيئًا من التعقُّد والخشونة مع الاغضاء عن قواعد اللغة. فمن شعره قولهُ في الحماسة:

قفوا (كذا) من الغفلات يا اهل الوطن ... انَّ العدوَّ دنا وها نَفْعُ الغبَنْ
حتَّى مَ انتم يا بُزاةُ روابضٌ ... هبُّوا فقد حام الغرابُ على الدمَنْ
هجم العدوُّ وها الغيارُ وانتمُ ... من ذا الغيار ستنسجون لهُ كفنْ
لا تخجلُ الغربانُ من سمة القلا ... بيدًا اذا نهض السُقابُ من الوكنْ
ناداكمُ الوطنُ الذي قد ضمَّكمْ ... في حضنهِ وسقاكمُ لبن المنَنْ
كرُّوا الى الاعداء كرَّ الاسد يا ... أُسدَ الوفاء فهم ثعالبةُ الحَوَنْ
قاتلوا اصوت ابيكم يرجو الحمى ... منكم فهبَّا طاردوا عنهُ المحَنْ
او ما ترون الدمع منهُ لاجلكم ... جري فقوموا نشفوا دمع الوطنْ
لا يحسن الموت الزؤام لدى ارى ... لكن لدى الاوطان موتكمُ حسنْ

ولهُ في الزهريَّات:

هوذا الصباحُ بدا وبالانوارِ ... طُبعت وجوهُ الكونِ في الابصارِ
والشمسُ قد نشرتْ بيارقها على ... قمم الجبال امام جيشِ نهارِ
وعلى عمود الصبح قد شاد الضحى ... بُرج النهار مسلَّحًا بالنارِ
والشرق اوتر قوس نورٍ وامتطى ... يرمي على الدنيا سهامَ شرارِ
والليل مزَّقَ ثوبهُ حزنًا على ... فقد النجوم وغار في الاغوارِ

ما زال مَدُّ النور يرفع في العُلا جَزْر الظلام كما صفَ لبار
حتى امتلى جوف الفضاء من الضيا وزهت بذلك كافَّةُ الاقطار
فترنَّمَ القمريُّ فوق غصونهِ طرباً وفاحت نسمةُ الاسحار
والدر هبَّ الى الدلاء كانَّهُ يبغي المسير مع السحاب الجاري

وقال يشكو الدهر:

رمت قلبي نبالُ الدهر حتى رأيتُ دمي يسيلُ من العيونِ
فلو كان الزمان يُصاغُ جسماً لكنت اذيقهُ كأس المنونِ

وقال في خواصّ الجسم:

الجسمُ معروفٌ بستِّ خصائصٍ فبهِ فمنهُ قطُّ ليس تحولُ
عدمُ التداخل وامتدادٌ صورةٌ جذبٌ سكونٌ انحزابٌ قبولُ

ومن حكمهِ قولهُ:

صدّقوني كلُّ الانامِ سواءٌ من ملوكٍ الى رُعاةِ البهائمْ
كلُّ نفسٍ لها سرورٌ وحزنٌ لا تبني في ولائمٍ او مآتمْ
كم اميرٍ في دستهِ بات يشقى بالُهُ والاسير في القيدِ ناعمْ
اصغرُ الخلق مثل اكبرها جرّ ما لهذا وذا مزايا تُلائمْ
والخلايا للنحل اعجبُ صنعاً من قصور الملوك ذات الدعائمْ

وكان فرنسيس المرّاش يراسل اهل الفضل في زمانهِ كالشيخ ناصيف اليازجي وغيرهِ. ولهُ مآثر عديدة وفصول انشائيّة وقصائد واراجيز نشرها ارباب الجرائد في عهده كاصحاب الجوائب والنحلة والزهرة والجنان يطول عنا ذكرها. ومن جيّد وصفهِ قولهُ في الحسود:

قالوا لزيدٍ انَّ عمراً فاز اذ ربحت تجارتُهُ بحظّ كبيرِ
فازورَّ من غضبٍ وكرّج (؟) عينهُ وتنفّس الصعداء اىَّ تنفّسِ
وغدا يقول تخرطماً ويهرطماً ويلاهُ من تحسين حال المفلسِ
وكذاك لمّا اخبروا عمراً بان بكرًا غدا ذا رفعةٍ في المجلسِ
ارغى وازبد خاثراً كالمُعتري وانتاب سخطهُ ظلامُ المندسِ
وانماز يصرخ قم كذبتم فاصرخوا انَّ السعادةَ لا تُرى في المُتعسِ
ورووا على بكرٍ بانَّ صديقهُ بغى بعزّ بعد ذلٍّ قد كُبي
فانسابَ كالافعى وقال اعوذُ من عارٍ غدا متبخترًا في الاطلسِ
والكلّ يبدون المسرّة كلّما سمعوا بنائبةٍ سرت في الارؤسِ
تبًّا لبيك ايّها الانسان ما ابليسُ ربُّ النحسِ منكَ باخسِ

ذي كبرياؤك يا لها من آفةٍ كالأفعوان سمتْ لقتل الانفسِ

وقد رثاهُ الاديب المرحوم بشاره الشدياق فقال يذكر تآليفهُ :

تركت يا مفردًا شانًا يذكّرنا شذاه كالمسك لمّا فاح في الطللِ
من مشهد قد جلا الاحوال بان لنا منهُ عجائب افعالٍ بلا خللِ
ومن غرائب ما شاهدت من صدفٍ ابهى من الدرّ او اشهى من العسلِ
ورحلةٍ سرتَ فيها قد حويت حكمًا صينت من الدر من قولٍ ومن عملِ

ولفرنسيس المراش اخٌ واخت اشتهرا ايضًا بالآداب . فاسم اخيهِ عبدالله وُلد في الشهباء منتصف أيار سنة ١٨٣٩ فلتقّى كفرنسيس اصول الآداب في وطنهِ ثمّ خصّ نفسهُ بالاعمال التجاريّة فسافر الى منشستر وتعاطى التجارة فيها من السنة ١٨٦١ الى ١٨٦٩ فأحرز لهُ فيها سمعةً حسنة بدرايتهِ واستقامة معاملتهِ . ثم جاء فرنسة واستوطن باريس الى سنة ١٨٧٩ ثم عاد الى منشستر فسكنها الى سنة ١٨٨٢ ثم حطّ عصا الترحال في موسيلية حيث توفي في اوائل سنة ١٩٠٠

وكان عبد الله المرّاش مع اشتغالهِ بالتجارة حريصًا على جمع الآداب مولعًا بالمطالعة والتوسّع في العلم وكان يحبّ على الخصوص الآداب العربيّة فيهتمّ بآثار العرب وفنونهم يسعى طاقتهُ في انتساخ ما يحلو لهُ من كتابات القدماء ونوادر تآليفهم وقد تردّد مدّةً الى مكتبتي لندن وباريس لهذه الغاية . وكان يكاتب كثيرين من أدباء زمانهِ ورسائلهُ تدلُّ على فضلهِ طُبع منها جانب في النشرات الشرقيّة . ومن آثار قلمهِ تعريب بعض التآليف الافرنسية ومقالات انتقاديّة على كتابات آل عصرهِ (١

امّا أُخت فرنسيس فهي ماريانا المراش التي لا تزال في قيد الحياة وهي طاعنة في السنّ لها ديوان دعتهُ « بنت فكر » طُبع في المطبعة الاديبيّة سنة ١٨٩٣ فمن قولها الجيّد رثاؤها لفتاة :

ماذا حملتِ على الابدي بلا حذرٍ ومن دفنتِ فا هذي من البشرِ
هذي ملاك اتت للارض لابثةً جسمًا لطيفًا بدا للعقل والنظرِ
والآن عادت الى الفردوس مسكنها لهفي فلم يبقَ قلب غير منفطرِ
لو كان يشفي غليلَ المرء دمعُ اسًى لكان دمعُ الورى يُغني عن المطرِ
فالصبر موتلكم يا آلنا ابدًا هذا العزي قضاء كان في القدرِ
أن غدا صابرًا في الخطب محتسبًا ينال اكيل مجد العزّ والظفرِ

(١) اطلب مجلة الضياء (ج ٢ : ٢٤٤ ، ٤٩١)

ونقشت على نعش اخيها فرنسيس:

ويلاه من جور دهر قد احلَّ بنا مصائبًا شأنها ان تصدع الحجرا
بثقبت السُّل منها حيثما نزلت تفني الجميع ولا تُبقي لهُ اثرا

ومما نُقش لها على كيس تبغ:

احفظ ودادك في فؤادك كائنًا وابثت ولا تكُ مثل تبغ دُخانِ
فمواصف الانفاس تصعدهُ سدًى وترجعهُ في عالم النسيانِ
والودّ ضمن القلب نقطةُ مركزٍ كالارضِ ثابتةِ الاركانِ

ومما نظمتهُ بيتان نُقشا على ستر يُسبَل على صورة السيّدة البتول:

لمَّا سموتِ على الملائكِ والبشرْ وافاكِ جبريلٌ يبشّرُ بالظَّفرْ
وبكِ الخلاصُ فدا وابليس انقهرْ انتِ الشفيعة للخطاة ذوي الوزرْ

ولما على لسان امٍّ فارقتها ابنتها:

مذ غبتِ عني اخذتِ الروح منّيَ اذ تركتِ جسمًا نحيلًا فاقد الجلَدِ
احرقتِ قلبي بنار الشوق جائرةً وما رحمتِ فيا قلبي ويا كبدي
عودي اليَّ رعاكِ الله يا املي يا نور عيني وروحي الروح للجسدِ

(رزق الله حسون) وفي هذا الزمان اشتهر حلبيّ آخر لعب دورًا مذكورًا في نهضة الآداب العربية. نعني بهِ رزق الله بن نعمة الله حسون. ولد هذا في حلب نحو السنة ١٨٢٥ وسافر الى الاستانة فتوطنها برهةً من الدهر وصار فيها ناظرًا لجمرك الدخان ثم تجول في اوربة ودخل فرنسة وروسيَّة وحلَّ مدة في لندن وكان في اسفاره يشتغل بالاداب العربيَّة ويؤلف التآليف النثريَّة والشعريَّة. وكان خطهُ بديعًا وفي مكتبتنا الشرقيَّة من قلمهِ عدَّة كتب تأخذ بالابصار لجودة خطها واتقانها انتسخها في اوقات الفراغ في خزائن كتب اوربَّة كصبح الاعشى للقلقشندي وديوان الاخطل وديوان ذي الرمَّة والمُتمّ لابن دريد وشرح نقائض جرير والفرزدق والاناجيل المقدسة ترجمة الدبسيّ. وبعد حوادث سنة ١٨٦٠ قدم الى الشام في صحبة فؤاد باشا فكان يعرّب مناشيرهُ واوامرهُ. ثم عاد الى انكلترَّة واشتغل بالتأليف في قرية وَنْزورث (Wandsworth). ومما صنفهُ ونفّذ وطُبع في المطبعة الاميركية في بيروت سنة ١٨٦٩ و١٨٧٠ كتابهُ «اشعر الشعر» اودعهُ نظم سفر ايوب ونشيد موسى في الخروج ونشيدهُ في التثنية ثم سفر نشيد الانشاد

لسليمان وسفر الجامعة وختمهُ برائي ارميا. ودونك مثالاً من ترجمتهِ وهو وصف أيوب للفرس :

فهل تُعطي الجوادَ يجبُ عزمًا ونكسو عنقهُ عَرفًا بسينا (؟)
أتوثبُهُ كمثل جرادة تَفسخُ منخرهِ مهيبُ الساسينا
ببطن الحَبْت بحاثٌ وثُوبٌ ببأسٍ يلتقي الحَرْب الزَّبونا
وجزأ بالمخاوف ليس يخشى عن الاسياف لم يُحجم جبينا
تصلُّ عليهِ راقصةً سهامٌ وترهقهُ رماحُ الدارعينا
ويطوي الارضَ في وثْب ورجزٍ ولم يُؤمن لصوتِ البوق حينا
اذا ما البوقُ يُنفَخُ قال هَهْ مِن بعيدٍ شُنَّتِ الهيجا شؤونا

وهذا مثال آخر من نظمهِ لمراثي ارميا :

أنّى خلا منها الانيسُ البلدةُ ملأى شعوبٍ بالبلاء تشتّتوا
صارت كارملةٍ معظَّمة الملا امُّ القُرى ضُربت عليها الجزيةُ

تبكي دمًا والدمعُ فوق خدودها فُقِدت عزاء خليلها ووَدُودها
اصحابها غدروا بها طُرًّا على قطعِ البدى اضحوا شمات حسُودها

ومما طُبع لهُ في المطبعة الاميركيَّة «كتاب السيرة السيِّديَّة على ما ادَّاهُ الينا المبشِّرون الذين كانوا شهداء الكلمة. وتبِعها هذا النسق تتبعاً لأزمنة الوقائع والمعجزات من البشارة بمولد يوحنا الى صعود الربّ». وذلك على طريقة طاطيانوس الذي مزج بين الاناجيل الاربعة وقد طُبع في مطبعتنا كتاب من جنسهِ وهو المعروف «بالقلادة الدريَّة في الاربعة الاناجيل السنيَّة» للاب يوحنا بلو اليسوعي

ومن مآثر رزق الله حسُّون كتابان آخران طبعهما في لندن: الاول كتاب النفثات ضمَّنهُ اربعين مثلاً من امثال احد كتبة الروس يُدعى ايفان اندريفتش كورلف (I. A. Kurlov) فنقلها حسُّون الى العربيَّة ونظمها شعرًا والحقها ببعض مقاطيع شعريَّة من نظمهِ والتعسُّف في كثير منها ظاهر واغلاطها عديدة هذا منها مثال:

دفع الجوعُ والدُّجى الذئبَ حتى أن تدانى الى سُهول البقاعِ
طارقًا لحظيرةٍ ناظرًا من ثُقب صخرٍ يلوحُ ضوءُ شُعاعِ
فرأى الغَنَم الساكين والسكين في كفِّ حاسرٍ عن ذراعِ
يذبحُ الحَمَلَ السمين ويُلقي للعَرَى الكِرْش والمِعى في القناعِ
والكلابُ روابضٌ ونيامٌ لا تذبُّ ولا يفُح نُداعي

فقضى عجباً وولى كئيباً خائباً من مرامه والمساعي
قائلاً يا كلابُ كم تنبحوني لو نصدّيتُ مثل هذا الراعي

والكتاب الآخر هو ديوان حاتم الطائي طبعهُ سنة ١٨٧٢ على نسخة مكتبة لندن في ٣٣ صفحة وقد طُبع هذا الديوان طبعة اخرى افضل من الطبعة السابقة واكمل منها على يد احد المستشرقين الالمان اسمهُ شولتس (Schulthess)

وكان رزق الله حسون من رجال السياسة يسعى مع الاحرار في اصلاح تركيا وذلك ما الجأهُ الى سكنى لندن في آخر حياتهِ وهناك طبع جريدتهُ مرآة الاحوال سنة ١٨٧٧ وكان سبق قبل ذلك بمدة طويلة فنشرها في الاستانة فكانت اقدم الجرائد العربية فيها (١ . اما وفاة المترجم فوقعت نحو السنة ١٨٨٠ مات فجأةً في لندن . وكان رزق الله حسون صديقاً لأدباء زمانهِ يكاتبهم ويساجلهم فمن ذلك ما كتب لبطرس كرامة :

خدينَ المعالي وابن مجدهما الفردُ بقيت بقاء الدهر يخدمك السعدُ
وزادك ربُّ العرشِ اسنى كرامة قرينٌ بها الاقبال والفخرُ والمجدُ
ولا زلتَ في امنٍ وموفور نعمةٍ ويمن ايادٍ كسبُها الشكرُ والحمدُ
وبعدُ فقد طال البعادُ وهيجتي يكادُ من الاشواق يضرمُها الوجدُ
وما ليَ عن لقياك صبرٌ ولا غنًى ولكنَ خَطْبَ الدهر ما بيتا سدُّ
ألا بئسما الايامُ اغرت يد النوى بنا فاستطالت ريثما قصر الجدُّ
موانع حالت دون فرض زيارتي وقد كنتُ ارجو ان يكون لك وفدُ
واصبحتُ من ابطائكم في هواجسٍ تحيّرني لا يهتدي نحويَ الرشدُ
نابني للاطمئنان منكم ألوكةٌ اذا لم يكن منكم قدومٌ هو القصدُ

ومما نظمهُ فيهِ المعلم بطرس كرامة ابيات قالها لما اقترن سنة ١٨٤٨ بسيدة تدعى ماتلد فقال :

خاديك يا نجلَ الفؤادِ خائفاً تنبّئُ عن افراحنا حينما تبدُو
بخيرِ اقترانٍ جاء وهو مبارك يقارنهُ برٌّ ويصحبهُ سعدُ
فلا زلتما طولَ الزمان بصحةٍ وعيشٍ رغيدٍ بُردهُ الامن والرفدُ
زفاف سعيدٌ والهناء مؤرخٌ موافٍ لرزق الله بالخير ماتلدُ

(لهُ بقيّة)

١) اطلب مجلة الهلال (٨ : ١٤٦ و ٢٣٤)